

الحياة المليئة

عندما نتأمل المخ ، أو بالأحرى قشرته الرمادية ، نجد شبكة من ملايين الخلايا التي تربط وتستطيع أن تؤلف ملايين الأفكار والمركبات الذهنية الجديدة ولـسكننا نقنع من حياتنا العقلية العادية بالقليل من هذه الأفكار . حتى لنستطيع أن نقول أن عشر المخ كان يكفيها . ولو أننا عنيينا منذ ميلادنا بالحياة الفكرية ، وجعلنا التربية تتجه نحو الاستنباط والاختراع والتفكير المبكر ، بدلا من التسليم بالعقائد والجرى على الأسلوب الاجتماعي الفاشي، لو أننا عنيينا بهذا لكان كل منا فيلسوفا أو عالما مخترعا . لان في القشرة المخية من ملايين الخلايا ما يتسع لملايين المركبات الفكرية . ولـسكننا نتركها باثرة في جذب بلا حرث أو غرس . فلا نعيش ملء حياتنا الذهنية بل نقنع بالقليل منها .

وحياتنا الفكرية هي بعض حياتنا البشرية ، وإن يكن هذا البعض أفضل ما نملك . ونحن للأسف لا نعيش ملء حياتنا البشرية . فقد تطول حياتنا ولـسكنها لا يكاد يكون لها عرض أو هي تمتلئ بالسنين ولكن هذه السنين لا تمتلئ بالحياة . وقد دعانا الإنجيل إلى التوسع والتعمق في الحياة حين نهنا إلى قيمة

« الحياة الوفيرة » وما الوفرة في الحياة سوى وفرة الاختبارات بالنشاط والتجدد . فالحياة الراكدة أو الجامدة ليست وفيرة أو ، على الأقل ، ليست في وفرة تلك الحياة التي تنذب طربا ومرحا في الدنيا .

وهنا تخطر بالذهن كلمة « الخماسة » التي اختارها أبو تمام مجموعة الأشعار التي جمعها من الشعراء الذين سبقوه . فإن البيت الخالد من أبيات الشعر هو العدسة التي تجمع المتشتت من النور في بؤرة مركزة ، فنحس العاطفة الذهنية في حماسة تثيرنا طربا أو إعجابا أو تفكيراً . ومن الحسن أن ننقل هذا المعنى إلى الحياة . إذ يجب أن نعيش في حماسة بلا ركود أو جمود أو تبلد . ويجب أن تكون حياة كل منا قصيدة من الشعر . بل يجب أن يكون لكل منا « بيت قصيد » أي هدف سام يتجاوز فيه النشاط وتتجه إليه الحياة .

وهذه ، كلها من المعاني الفنية ، معاني الشعر ! التي يجب أن ننقلها إلى الحياة .

وعند التأمل نجد أن لنا ثلاث حيوات نمارسها جميعاً . وهي في صميمها ثلاث ذوات .

فان لنا الذات الصغرى الأملية ، ذات الرجوع الانعكاسي ،

التي نشاهدها في الأميبة والاسفنج وأحط الأحياء .
ولنا الذات الصغيرة الحيوانية ذات الشهوات والغرائز ،
لأكل والتناسل والتسايط ، التي نشاهدها في الحيوانات الدنيا والعليا .
ثم هناك الذات البشرية ، ذات الوجدان أى التمعقل
والقدرة على أن نرى الدنيا بما يقارب حقيقتها عندما نتجرد من
غرائزنا وننظر النظر الموضوعى .

والحياة المليئة هي الحياة الوجدانية التي تحملنا على التخلص
من الأنانية الآسنة إلى الغيرية الحية فتوسع ونتعمق بما يشبه
ألمر الذهني . كأن حياتنا ليست مقصورة على أبعادنا الجسمية
الشخصية بل تشمل غيرنا من البشر . وقد تكون هناك حياة أملاً ،
هي تلك التي يقول بها أو يبصر بها فرويد ويسمىها « الحاسة
الأوقيانوسية » أى زيادة في الوجدان تجعلنا نحس الاندغام
الشخصي في الكون كله بحيث نحى في ذراته وجزئياته وكواكبه
ونجومه ونباته وحيوانه .

ولكن هذا حدس فقط . وقصارى ما نستطيع أن نقوله
في يقين أن الحياة المليئة تحتاج إلى سخاء وتفاؤل . لأن أعظم
ما يحدد حياتنا ويقيم حولها السدود هو البخل . وهذا البخل
ينشأ من التشاؤم الذي يحدث لنا الخوف من الاقتحامات فتتبدل

ونجمد . ثم نعيش في حياة ضئيلة قليلة الاختبارات . وقد
نفتنى إلى أسلوب من الزهد والنسك فنكاد ننكر الحياة

ولست مع ذلك أنكر قيمة النسك والزهد . وإكتهما
يجب أن يكونا وسيلة وليسا غاية . أى أننا ننسك ونزهد
ونعتكف كي نستجيم ونعود إلى الاختبارات الفنية والذهنية
والعاطفية . أى نعود بقوة متجددة . وكذلك يجب أن نمارس
العفة حتى نسمو بالتعارف الجذسى إلى مستوى من التأنق والفن
يرفعنا عن التبذل الرخيص للعاطفة . فنضع الوجدان والتعقل
مكان الغريزة النشيمة . فلا تكون العلاقة الجذسية نهبا وخطفا
بل تأملا وحبا ، فتجدى الجمال بوجداننا فى فن وتفكير إذا
تجدى غرائزنا هو فى إغراء واغواء .

والحياة المليئة تحتاج — كما يجب أن نكرر — إلى وفرة
الاختبارات . ومعنى هذه الوفرة أن نعيش لتتعلم وندرس
الكتب والطبيعة والمجتمع . ونهتم بالسياسة والاقتصاد والتطور
البشرى . نهتم بها جميعا متفرجين وعاملين . ونعيش فيها بروح
الابتكار والتساؤل والاستطلاع حتى نفهم ويستيقظ ذكاؤنا
وتستفيض شبكة المركبات الذهنية فى القشرة الرمادية المخية .
وإذا ذكرنا البخل فلانذكره بشأن الحرص على المال فقط .

وإن كان هذا أفشى مظهره . لأن أسوأ ما في البخل نزوعنا
فيه إلى التبلد والاعتكاف الذهني والعاطفي وكراهة الاختبارات
فهمو لا يعيش ملء حياته .

والحياة المليئة تحتاج إلى التفاؤل بالدنيا والمستقبل وإلى
السخاء وإلى دوام الاستطلاع والنمو ؟

الرواية

فراغنا يزداد . وسيزداد في المستقبل أكثر فأكثر . وسيكون ملؤه أو الانتفاع به من أعظم المشكلات في التعليم والتربية بل سوف تكون الغاية الوحيدة من التربية هي الانتفاع بالفراغ . أي كيف نعيش ١٢ أو ١٥ ساعة كل يوم بلا عمل كاسب . أما التعليم الحر في فلن تكون له هذه الأهمية .

وفي عالمنا الحاضر طبقة من الأثرياء تعيش في فراغ كامل أو تكاد لأن وسائل العيش الممتاز موفرة لها . إذ أن أفرادها يستغلون أفراد الطبقات الأخرى . ولكن عند ما تأمل العارق التي تتبعها هذه الطبقة الممتازة في قضاء فراغها أو استغلاله نجد أنها ليست مما يفرى . فان سباق الخيل وصيد الحمام والصيد بالقنص في مطاردة الثعالب أو الأرانب وقضاء الليل في المقامرة أو العريضة الجنسية أو الكحولية ، كل هذا أو أشباهه لا يدل على أن هذه الطبقة المنرفة الممتازة قد عرفت شيئاً يمكن أن يوصف بأنه « فن الفراغ » بل هو يدل على أن هذه الطبقة لا تطيق فراغها ولا تستخدمه إلا على سبيل الفرار من الوقت بقتل الوقت .

وتطور الآلات والزيادة في الإنتاج وتوافر الضروريات

لكل انسان ثم توافر الكماليات في المستقبل ، ستجعلنا جميعاً في شبه تعطل . لأن طرق الإنتاج العلمية التي لا مفر من استخدامها في العالم كله قريباً ستوفر للانسان حاجاته بأقل الجهد في أقصر الوقت . ولذلك سنجدنا جميعاً معطلين فارغين معظم النهار والليل نحتاج إلى ما يشغلنا . فاذا لم نجد المفيد الذي يرفعنا ويرقينا عمدنا إلى المضر الذي يحطنا .

بل نحن ، قبل أن نفكر في المستقبل ، نجد أن حاضرتنا يوفر لنا ، أو بالأحرى لبعضنا من أعضاء الطبقة المتوسطة ، فراغاً يترجح بين أربع وعشر ساعات كل يوم . فيجب أن نملاّه وان نتعلم كيف نملاّه . وعند الانجليز كلمة « هوبي » ، لما نسميه بالعربية « الهواية » أي العمل نعمله للذة فقط لا نبغى منه كسباً . وعند ما نملاّ فراغنا بهواية نجد في الفراغ تخفيفاً بل معالجة للتوترات التي نستجيب بها حائقين مرهقين لمصادفات الحياة المعاكسة المناوئة . وكلنا يعرف أن الحركة والنشاط والعمل كل هذه تخفف التوترات وتفرج عن العواطف المسكظومة . فاذا كانت الحركة في عمل محبوب تتجه إليه الإرادة في نشاط حتى تستحيل إلى حماسة ، فإن الاتزان النفسي الذي ربما يتزعزع من إرهاق العمل الحرفي ، يعود إلينا فنستأنف هذا العمل مرتاحين مستجمين .

لهذا السبب يجب أن يكون لكل منا هواية . وأن نعلم أولادنا ، وهم في الطفولة والصبا ، كيف يشغلون فراغهم . وأن ننفق بسخاء على ما يحتاجون إليه لشغله . وذلك لأن فراغهم في المستقبل سوف يزيد على فراغنا نحن . وسوف يثقل عليهم ، لهذا السبب ، أكثر مما يثقل علينا .

وعلى القارئ أن يقصد إلى إحدى المكتبات في القاهرة ويطلب إحدى المجلات التي تعالج الهوايات واسمها «هوبيس» وهي في الأغلب انجليزية . ومن هذه المجلات يستطيع أن يستنير وأن يذئق أو ينفع أولاده .

وأقرب الوسائل إلى الانتفاع بفراغنا أن نتعدد اهتماماتنا ودراساتنا وأعمالنا . أو ، بكلمة أخرى ، يجب ألا يكون طريقنا منفرداً في الحياة . لا نعرف غير وسيلة واحدة للكسب والعيش . ولا غير وسيلة واحدة للترفيه والترويح . إذ يجب أن يكون طريقنا مزدوجاً بل خير لنا أن نتعدد الطرق .

وقد يخلو بيت في أوروبا من غرفة يستأثر بها الزوج لا يجوز لزوجته أن تتدخل في ترتيبها . وفي أغلب الأحيان تكون هذه الغرفة منزوية قريبة إلى سطح البيت وهي مريحة في فوضى الأثاث والأوراق . وهي ملجأ أو معتكف يلجأ إليها الزوج كي

ينفخ عن كظومـه أو يفرج عن توتراته . وهى من المرافق الاجتماعية التى تمهد العقبات وتسوى التواءات التى تنشأ من العمل أو من العائلة .

وقد تكون الهواية دراسة أو دراسات معينة . ومعظم الذين يسعدون بشيؤختهم ، حين يحيلهم المجتمع على التقاعد ، يكونون فى الأغلب قد هـووا الدراسة فـلازمتهم هوايتها إلى الشيؤخة . وهناك هوايات أخرى عملية كالنجارة أو تجليد الكتب أو ، للمرأة ، أنواع من التطريز والوشى والنسيج .

وأذكر انى زرت ذات مرة أحد الأندية النسوية فى القاهرة فوجدت طرازاً جميلاً خفيفاً من الكراسى عرفت ، حين سألت عن صانعه ، ان هذا الصانع موظف كتابى فى الحكومة قد هوى هذا العمل وانقنه لا يبغى منه فائدة مادية . ولكن الفائدة المادية جاءت عفواً بحيث يستطيع الآن أن يستغنى عن وظيفته الحكومية ويقتصر على النجارة .

والرجل ، او المرأة ، التى تشغل هواية ما يسعد بفراغه . ويستطيع أن يفتن بهوايته ويتأنق فى أدائها لأنه لا يعجل ولا يهرول إذ هو فى فراغ ينبسط أمامه . فهو يتقن ويتأنق . وحبذا للمرأة تشغل فراغها بهواية مفيدة ترتقى بها اجتماعياً أو انسانياً

وتجد فيها أيضاً ما يغنيها عن الاستماع للفارغات من النساء اللاتي
يملأن فراغهن بالقييل والقال .

وربما لا يكون الزمن بعيداً حين تعلم المدارس وتخرج
تلاميذها أو طلبتها للحياة وليس للحرفة . وحين تعنى بالفراغ
والهواية أكثر مما تعنى بالعمل والكسب . وفي هذه الدنيا الواسعة
هناك لا أقل من مليون هواية تنتظر من يبحث عنها ويهتدى
إليها . وقد تكون إحدى هذه الهوايات بذرة لإختراع أو
اكتشاف جديد يحتاج إليه البشر . وهل فكرت أيها القارئ
وذكرت أن كثيراً من المخترعات والمكتشفات إنما كان ثمرة
إحدى الهوايات التي ملأت فراغ أحد الهواة ؟

وفي ظروفنا الاجتماعية الحاضرة يحتاج كل منا إلى هواية .
أولاً لأن حياتنا حافلة بما ينغص ويبحث على توترات وكظوم
مختلفة متكررة . والهواية هنا تخفف وتعيد لنا اتزاننا النفسي
لأننا نجد فيها كل يوم انتصاراً وحماسة . وثانياً لأننا نرتقي
بممارسة هواية ما إذ نتعلم فناً أو أى مهاره أخرى تحرك ذكاءنا أو
عضلاتنا . وثالثاً تحول الهواية دون الوقوع في العادات السيئة .
وأنت أيها القارئ . عندما تجول في شوارع القاهرة وتجد المئات
من الشبان السادرين الذين يقعدون على القهوات ويدخنون

في ذهول كأنهم نائمون ، أو يكرعون الخمر في غير مبالاة ، أو
تجد النساء في شجار سافراو مستتر ، فانك لابد عند التأمل واجد
أيضاً انهم يكابدون توترات وكظوماً قد جهلوا طرق التخلص
منها . وخير الطرق في ظروفنا الحاضرة هو هواية لذينة تملأ فراغهم
وكثير مما ذكرنا في هذا الفصل قد سبق ان اشرنا إليه في
فصول سابقة . وليكننا احتجنا إلى جمع بعض الملاحظات هنا لما
لها من الدلالة على قيمة الهواية .

الخلوة

يبدو الإنسان كأنه حيوان اجتماعي لا يطيق العيش منفرداً. وهو يعد الحبس الانفرادي أقسى أنواع الحجر والتقييد لهذا السبب . فان المسجون لا يطيق انفراده بين الجدران في الزنازة . ولذلك يعاقب المسجونون أحياناً بحرماتهم من رفقة زملائهم المسجونين ويوضعون في الزنازة . وحضارتنا ، ولغتنا ، وديانتنا ، وأخلاقنا ، تدل على الحياة الاجتماعية .

ولمكنا ، لأننا نعيش في مجتمع ، نجدنا منساقين في تياراته ، آخذين بأساليبه ، معتمدين على قيمه وأوزانه . فتبرز في وجداننا حقائق العيش والكسب والوجاهة والأبهة ونعمى عن حقائق أخرى أكبر قيمة وأعظم وزناً . أى أن الحقائق الاجتماعية التافهة كثيراً ما تغطي على الحقائق البشرية الجميلة .

ومن هنا قيمة الخلوة . فان التفكير بطبيعته اجتماعي ، أى أننا نفكر بالقيم والأوزان الاجتماعية بل بكلمات اجتماعية . ولمكنا لانحسن التفكير إلا في الخلوة بعيدين عن صخب المجتمع وضوضائه . والخلوة والهواية كلتاها ضرورية لنا كي نجد الاتزان النفسى والتأمل الفلسفى وكأننا بهما نبتعد عن المجتمع

ونستقل من جميع اعتباراته ونحاول أن ننحرف عن طريقه
وأوضاعه كي نرى أنفسنا .

وإذا كانت الهواية تربينا لآلها تتيح لذكائنا أو عضلاتنا
تدريبا وتبسط لنا آفاقا ، فإن الخلوة تتيح لنا الوقت والافراد
كي نبحث من وقت لآخر عن مراسيلنا في المجتمع ، بل في الكون .
لآلها تنزعنا من هذا الموكب الذي نسير فيه ، أو بالأحرى
ندساق فيه ، ذاهلين إلى موقف الوجدان والتردد والتأمل
والتساؤل : هل نحن على صواب أم خطأ ؟ هل عاداتنا ومألوفاتنا
قد غمرت حياتنا حتى صرنا نعد العرف ناموسا أزليا والوضع
القائم سنة مقدسة يجب ألا تتغير ؟

والتأمل في الخلوة يرفعنا فوق هذه الاعتبارات لأننا نحاول
أن نفهم الفهم الموضوعي ، فهم الوجدان والتعقل ، بدلا من
الفهم الانسيابي الاجتماعي . كأننا بهذه الخلوة نأخذ من المجتمع
« إجازة » كي نفكر وحدنا بلا تدخل منه . فنعتكف ونقارن
بين القيم القديمة والقيم الجديدة . وبين ما يجري وما يجب أن
يجري . وبين القيمة الاجتماعية والقيمة البشرية . والخلوة هي التي
تحملي مثلا على أن أحس أنني لست مصرياً فقط إذ أنا قبل ذلك بشري
أنتهي إلى ٢٢٠٠ مليون إنسان وليس إلى ١٧ مليون مصري فقط .

وهؤلاء هم عائلتي الكبيرة التي ترتفع فوق الوطنية والمذهب والسلالة واللون . هم البشرية التي توج بها التطور بعد ألف مليون سنة من الكفاح البيولوجي هذا الكوكب . وهم الذين أفكر فيهم حين أتخيل الإنسان بعد مليون سنة .

وما أبدع غاندى حين يصرّ على أن يختص بيوم كل أسبوع يصوم فيه عن الكلام . فلا يخاطبه أحد ولولم يختل ولم يعتكف . لأنه في هذا الصمت يجد خلوة ذهنية يستطيع أن يفكر فيها دون أن يرتطم ذهنه بسؤال أو اعتراض أو اعتبار .

وكل منا محتاج إلى مثل هذا اليوم الأسبوعي . ولكن الخلوة يجب أن تكون مادية لأننا لم نرتفع إلى مقام غاندى حتى نأمر فقطاع أى نطلب ألا يخاطبنا أحد فيسمع لنا . وإذا نحن اختلفينا وانفردنا وجدنا هذه الفرصة . ويحسن أن نحتلي بلا كتاب أو جريدة . ولكن مع ورقة وقلم كي ندون ما يستحق من أفكارنا الطارئة . وقد عرفت اللغة العربية كلمة « خلوتي » وهي صفة المتصوف الذي كان يخلو ويعتكف كي يتأمل منفرداً دون أن يشغله شاغل بشرى أو مادية . وفي حياتنا مشكلات كثيرة تطالبنا بأن نخلو ونفكر : ما هو الدين ؟ ما هو الشرف ؟ ما هو الكون ؟ ماذا بقي لى من العمر ؟ وماذا أنا فاعل به ؟

وما هو برنامجي ، برنامج الحياة ، في السنوات الخمس القادمة ؟ هل درست ديانتني ؟ هل درست الفلك وهو أقرب العلوم إلى الديانة ؟ هل حياتي الماضية أو الحاضرة يصح أن تستمر كما هي في المستقبل ؟ أو هل يجب أن أتغير ؟

ومثل هذه المشكلات تحتاج إلى الخلوة لأنها بشرية كونية لا تضيق ولا تحد بالاعتبارات القومية أو الاجتماعية . والذهن الناضج لا يفتأ يفكر فيها . ولكن لا يحسن التفكير فيها إلا في خلوة . وقد كان جيمته يقول : « بدون الوحدة التامة لا أستطيع أن أنتج شيئاً بقاتاً »

والواقع أن كل مفكر ، يرتفع إلى مستوى عال من المركبات الذهنية ، يحتاج إلى خلوة من وقت لآخر . وإذا نظم كل منا خلواته وجعل لها ميعاداً معيناً ، مرة في الشهر أو في الأسبوع ، ويوما كاملاً أو بعض يوم ، فإنه يجد أنه في مراجعته لحياته الماضية ، وفي تبصره بالمستقبل ، قد اهتدى إلى أساليب وأهداف ما كان ليصل إليها لو أنه استسلم وانساق في المجتمع .

وهذه الحياة الاجتماعية التي تلابسنا في البيت والقهوة والنادي والمكتبة ، بل حتى في الجريدة والكتاب ، تحول دون التفكير المثمر وتشغلنا بتوافه وصغائر تبديد بها حياتنا . ولكن

الخلوة تجمع تفكيرنا في بؤرة وتفتح لنا نوافذ على فضاء آخر
قد نجد فيه ما نتغير به إلى أحسن .

وليس الخلوة التي نقترح بالشئ الجديد . لأن الواقع أن
كلاً منا يخاو ويعتسكف من وقت لآخر . فان أحدا يخرج إلى
قهوة نائية كي يخلو ويفكر . وعقب الغداء قد ننسطح في الفراش
لا لننام بل لنفكر في موضوع معين . بل ربما قصد أحدا إلى
طريق متنح كي يمشى فيه منفردا للتفكير . وهلم جرأ . فنحن
نحس الحاجة الى الانفراد والخلوة ونمارسهما دون أن نحتاج
الى ارشاد . ولكن اذا جعلنا خلوتنا معينة بمواعيد كان ذلك
أنجح لتفكيرنا وأنظم لحياتنا ؟

قيمة الحب للحياة الفنية

كلمة الحب، من الكلمات التي تتعدد معانيها وتختلف . ولذلك
احتاج مترجم الانجيل إلى أن يستعمل كلمة « المحبة » للمعنى
المسيحي الخاص . وهذا التعدد يتضح عندما يقول أحدنا : أنه
يحب البرتقال . أو يحب زوجته . أو يحب النظام . أو يحب الله .
قائنا هنا ازاء طائفة من المعاني المختلفة التي كان يجب أن يكون
لكل منها كلمة خاصة .

ونحن نقتصر هنا على معنيين هما الحب الجلسى والحب
البشرى . فان كثيرين من المفكرين يرجعون حب البشر، الاخاء
والصداقة والتعاون ، إلى الحب الجنسي . كأن هذا هو الجذر
الذى إليه ترجع عواطفنا البشرية السخية . ولكن الحقيقة أن كلا
منهما يرجع إلى أصل منفصل من الآخر . فغاية الحب الجنسي
هى التناسل . وغاية الحب البشرى هى تكبير الشخصية والتعاون
الاجتماعى والرقى العائلى والنمو الذهنى .

وليس هذا الذى نسميه وحباً جنسياً ، ضرورياً للتناسل .
فان السمك مثلاً يتناسل بالملايين . ومع ذلك لا يعرف الحب .
لان الذكر يلقى بجرائمه فى الماء . وكذلك الانثى تلقى بويضاتها
فى الماء مثله . ثم يتم التلاقح فى الماء دون أن يعرف الذكر الانثى .

وعندما نتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد أن العاطفة الغالبة والتي تنضح من سلوكه هي عاطفة الافتراس والأكل والالتهام. فان الذكر يفترس الأنثى وليس بين الاثنين حنان. وأحيانا ينقلب التلاقح إلى شجار وقسوة وافتراس. وإذا كان الحب الجلسي بين البشر قد خالطته رقة وحنان أو عطف فإنما مرجع ذلك إلى الثقافة الاجتماعية التي ارتقت بها عواطفنا.

أما الحب البشري فرجعه إلى يلبوع آخر هو حب الأم لأولادها. وحب هؤلاء لها. وهذه العاطفة بعيدة جدا عن الحب الجلسي. إذ هي تنضح حناناً ورقة وهي تحمل الأم والأبناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا.

والإنسان البدائي كان دائماً الارتحال. فكانت الأم مع أولادها ترعاهم وتربهم. وكان تعلقهم بها يحملهم أيضاً على أن يتعلق أحدهم بالآخر. فإذا ماتت الأم مثلاً بقي الأبناء على قواعد رفقتهم السابقة يتعاشرون ويتعاونون. وهذه الأخوة بينهم هي أصل الاخاء البشري بل أصل المجتمع.

بل نستطيع أن نزيد هذا التمييز بأن نقول إنه إذا أحب الرجل المرأة حباً عميقاً بشرياً فان هذا الحب يحول دون الحب الجلسي. كأن هناك تناقضاً بين الاثنين : الأول كله حنان

ورقة . والثانى بعضه اقتراس وقسوة .

وعندما تتأمل الحب الجنى نجد أنه غريزة ذاهلة . ولكن
الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد وننمو بالحب
البشرى الذى ترتقى به شخصيتنا . لأن هذا الحب يستلبط منا
أحسن الخصال فى الحنان والرفقة والظرف والكمياسة بل أحيانا
فى التضحية . وهذا الحب هو الذى يجعل الإنسان إنسانيا .
وما ندعو اليه من إخوان بشرى ، أو ما نقدره من خصال فى
صديق ، أو ما نتعلق به من آمال نرضى بأن نضحي لتحقيقها ،
إنما كل هذا يعود الى الحب البشرى الذى كسبناه من عواطف
الأمومة والبنوة .

قلنا أن الحب البشرى عقل ووجدان . ولذلك نحن نزداد
فهما بالحب . لأن الحب ينبه الذهن ويوقظه . وهو هنا نقيض
الحب الجنى الذى ندساق فيه بالغريزة . ولذلك أيضا كثيرا
ما نجد أن بذور العبقرية ، أو على الأقل النبوغ ، تعود الى الحب .
لأن الصبي الذى يحب الطبيعة ويجمع الأحياء أو الزهور أو
الأصداف والمحار ، هذا الصبي يحده حب بشرى قد استحال
الى حب للطبيعة ينبه ذكاهه ويبدسط آفاقه ويكبر شخصيته . وهو
بهذا الحب أقرب ما يكون الى النبوغ أو العبقرية . لأنه ، بالحب ،

يرى أكثر ويفهم أكثر . كما ترى الآم في ابنها وتفهم أكثر مما يرى غيرها فيه للحب الذي تحس به نحوه .

والحياة الفنية تطالبنا بأن نجعل الحب شعارنا . لأنه ، أى الحب ، يملأنا تفاؤلاً فنبتعد عن الخوف والقلق والشك ونستكثر من الأصدقاء أو على الأقل نلتزم أصدقاءنا ونخدمهم في سرور . وإذا جعلنا أساس علاقتنا بالناس والدنيا حباً فإننا لانسأم الحياة ، بل نجد كل ما فيها يدعو الى العطف والفهم . ولكن الحب مثل الشجاعة ، يحتاج الى تدريب . وصحيح أننا نكسب شيئاً من الحب العائلى أى من علاقتنا بالأم والاختوة والأب ، ولكن هذا الذى نكسبه عفواً فى طفولتنا وصبياننا يحتاج الى الرعاية والتنمية . ونستطيع أن نتعود الحب بالصدقة والتعاون والضيافة والخدمة حتى ولو كانت طفولتنا قد أهملت أو كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب .

والرجل الذى تنبعث فيه عاطفة الحب نحو المجتمع أو البشر هو أقرب الناس الى السعادة وهو أبعد الناس عن الشقاء النيوروزى . وكلية السعادة من الكلمات التى يجب ألا نخلطها بإحساس السرور . ولكن الحب يبعث السعادة الحقة الدائمة أكثر مما يبعثها السرور الزائف الزائل .

ومن هنا تأكيد الأديان جميعها للحب . إذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب . لأن الدين ينشد السعادة . والحب ، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة . وعبارة « المركبات الذهنية والعاطفية » تحمل معنى توضيحياً للحب . ذلك ان الحب يحتاج الى تربية كما يحتاج الى مراعاة . ويجب لذلك ان يكون مثقفاً من ناحية بالتربية وعملياً من ناحية اخرى بالمراعاة .

فنحن نعرف ان الرجل المثقف الذي يتجه الوجهة العالمية ويدرك المغزى للتطورات البيولوجية والتاريخية ويدأب طوال عمره في درس الشؤون البشرية ، مثل هذا الرجل المثقف يحب ، لأنه يعرف ، اكثر من غيره . وقلبه سمح لأن قلبه أعرف . فانساع المعرفة سبيلاً الى اتساع الحب . ولهذا السبب ايضاً يعد الأدب في صميمه ، والفلسفة في صميمها ، دعوة الى الحب البشرى والخير العام .

ولا يمكننا نحتاج ، كي نجعل الحب مزاجنا النفسى واتجاهنا الأخلاقى ، الى المراعاة . أى يجب ان نؤدى عملاً ما يحمل معنى الحب . وكل منا يستضيء هنا بمعارفه السابقة لأنه على قدر هذه المعارف يكون الضوء المنير الذى يعين الهدف والسلوك . وقد

يقنع احدهنا بالإحسان لمعاونة الفقراء . او الانضواء الى جمعية لمنع القسوة على الحيوان او معاونة الصيادين المشردين او نحو ذلك . ولكن هناك من يعرف اكثر لأن ثقافته اوسع واعمق وهو لذلك انفذ بصيرة في الأسباب التي تجر البؤس والمرض والرجعية والجهل . وقد يجد ، لهذا السبب ، ان الدعوة الاشتراكية والكفاح لنشرها ، خير الأعمال التي يجب ان يقوم بها لأنها جماع الإصلاحات التي ينشدها غيره متقطعة مجزأة . وقد يجد عملاً آخر . ولكن المهم اننا نحب بممارسة الحب . وان هذه الممارسة تزيد حبنا للبشر كما تزيدنا فهماً وسعادة ولو شاء أحدنا أن يصف الدين الذي يؤمن به دون أن يعين اسمه بأنه دين الحب ، لقال أحسن ما يقال وأسمى ما يقال عن الدين .

من التبلور إلى التجوهر

عندما يأخذ السكياوى فى تحليلاته لأحدى المواد التى يقصد إلى عزلها ليكون منتهى ما ينشده من نجاح أن يبلورها . أى يخرجها نقية خالصة من الاخلاط التى كانت تشوبها وهى خامه . وهذا التبلور هو محاولة للوصول إلى الجوهر أى هو تجوهر .

ونحن البشر فى حياتنا المدنية نولد وننشأ فى وسط المدينة أو الريف . فاذا كنا أطفالا تشابهت تقاسيمنا وملاح وجوهنا كما تشابه سلوكنا إلا القليل جداً ، والذي تبرزه فروق الوراثة . فنحن فى الطفولة مواد بشرية خامه لم تبلور أو تتجوهر .

ثم ندخل المدارس ونحترف الحرف ويؤثر الوسط الخاص اثره فى كل منا فنختلف . هذا تاجر وذاك محام . وهذا حوذى وذاك مزارع . وهذا كاتب موظف وذاك مهندس حر . وكل من هذه الحرف يطبع طابعه فى تقاسيم النفس والجسم . ثم تمضى السنوات ، عشرون أو ثلاثون سنة ، ونحن نلتزم حرفة بسلوكها واخلاقها التى تفتضيها . وبمرور هذه السنين نتكشف كالزهرة من التعميم إلى التخصيص ومن الحال الخامه إلى حال التبلور . وكان هذه الاختبارات التى تمر بنا تصهرنا وتخرج منها الجوهر

الخاص ، اجل . هو الجوهر ولكنه جوهر الحرفة وليس جوهر الشخصية .

لذلك عندما نتأمل أحد الناس ، الذين النزموا حرفة ما ثلاثين أو اربعين سنة ، لا نكاد نخطيء في تعيين حرفته دون أن نحتاج إلى سؤاله عنها . لأنها تخبرنا وهو يتحدث لأن لهجة الحرفة غالبية عالية . كما نجد من ايماءاته واختيار أحاديثه جميع الاماراته التي تعلن عن حرفته .

وبخلاف هؤلاء نجد أن ذلك الشخص الذي تقلب في حرف كثيرة ، فهو يقال ثم سمسار ثم كاتب ثم صانع ثم مزارع ، مثل هذا الشخص لا يتبلور . فاذا قعدنا اليه لن نعين حرفته . ذلك أن اهتماماته الحرفية لا تتجمع في بؤرة بل تتشعب هنا وهناك . ولذلك أيضاً لا يترك في أذهاننا ، من حيث الحرفة ، صورة معينة . ولسنا بهذا الذي ذكرنا نؤثر ذلك الملتزم الحرفة ما على الآخر الذي تقلب وتغير . وانما نريد أن نبين أن هناك تبلورا أو تجوهرنا نكسبه من الحرفة التي نلتزمها سنين كثيرة . كأن الحرفة قد استصفت جوهرها وعيلته ونحت عنه الزوائد .

وعندما نتقدم في السن ، ونكون قد عطينا بتربية أنفسنا وتنمية شخصيتنا ، نجد أننا أيضا نتبلور ونتجوهر . ولكن ليس

من حيث الحرفة فقط بل من حيث الشخصية . وصحيح أن الحرفة هي بعض المؤثرات في الشخصية . ولكن هناك مؤثرات أخرى عديدة إلى جانب الحرفة . وهي تبلورنا وتجوهرنا .

اعتبر شاباً جافاً خاماً واعتبر أيضاً رجلاً في الحسنيين قد قضت أخلاقه وأينعت شخصيته وقارن بين الاثنين . تجد أن الأول لا يزال في التعميم . فهو أحد الشبان ، أما الثاني فقد تخصص وله مغزى وهو رمز إلى أشياء عدة لها قيمتها الاجتماعية أو الثقافية .

وهذه الرمزية وهذا المغزى هما ثمرة الحياة الحيوية ، الحياة الفنية ، التي قضيناها ونحن نقصد إلى غاية ونتبع نهجاً ونكسب الاختبارات وننمو بها . وهي جميعاً تصهرنا وتحيل التبر إلى المعدن الخالص .

وإذا كانت غايتنا أن نصل إلى الشخصية اليانعة وأن تبلور إلى الفكرة الجوهرية وأن يستحيل وجودنا في مجتمعنا إلى مغزى ، فإن التزام الحرفة الواحدة قد يكون عندئذ معرقلاً أو مبطلًا لأنه يحدد من حيويتنا واختباراتنا . أجل . يجب أن تكون الحرفة بعض ما يكون شخصيتنا وينمىها ويبرز المغزى في حياتنا . ولكن يجب ألا تكون هي كل شيء .

وفن الحياة يقتضيها أن نرقى الى السنين ونسير في التعمير
ونحن على الدوام في ازدياد التبلور والتجوهـر ننفي الزيادات
ونطلب الخلاصة . وفي حياتنا اشياء كثيرة من هذه الزيادات
التي تنمو علينا كما تنمو صغار الحمار والودع على السرطان في
البحر فتعوق سباحته وتطفل على جسمه . فهناك مثلاً التزامات
« اجتماعية » تبعثر وقتنا . وهناك « مشاغل » مالية تستهلك
طاقتنا الحيوية . بل هناك مطاعم نشأت ونمت معنا بقوة التكرار
وحكم العرف الاجتماعي اذا تأملناها بعد الخمسين الفيناها عقيمة
تشغلنا عن الجوهر والخلاصة وتمنعنا من أن نعيش المعيشة
الوجدانية اليقظة فيما بقى لنا من عشرين أو ثلاثين سنة .

لكن أدباء وشعراء

يفشأ الترف للخاصة التي يتوافرها الفراغ والمال فتستطيع أن تعيش فوق مستوى الكفاية والضرورة وتطلب ما نعهده من الكماليات والزيادات . وأدوات الترف في أيامنا كثيرة وهي تختلف من الطبقة الصينية الذي يوميء بزخرفته الى عصر مضى، الى بساط ايراني تزدهي ألوانه ، الى غير ذلك مما لا يزال يقتنيه الأثرياء . بل حتى المكتب القديمة قد أصبحت نوعاً من الترف يشتره الأثرياء ويحفظونه قنينة تورث كأنها بعض الجواهر .

وأدوات الترف هذه تقتنى . ولكن هناك ألواناً من الترف تمارس كالآداب والشعر وسائر الفنون الجميلة . وصحيح أن هناك من يحترفونها ويجدون فيها ضرورة العيش ووسيلته بل يجدون فيها أيضاً ضرورة الحياة لأنهم ينفسون بها عن كظوم نفسية . وعلى ذلك ليست الفنون الجميلة عند من يحترفونها ترفاً . ولكنها كذلك عند من يهوونها أي يجعلون منها هواية ينفقون عليها من وقتهم ومالهم . يشترون المكتب الأدبية كي يقرأوها ثم لا يكتفون بهذا بل يحاولون أن يكونوا أدباء وشعراء وفنانين . وهذه المحاولة ، وهي في الأغلب محاولات عديدة ، تنتهي الى

أن تكون ممارسة مزمنة ، هي نوع من الترف . لأن الممارس لهذه الفنون لا يتخصص . إذ هو في الأغلب موظف في الحكومة أو في شركة . وقد يكون معلماً أو طبيباً أو تاجراً . ولكنه منذ فجر شبابه التفت الى لون من التأنق الفكرى عند أحد المؤلفين فاستهواه وجذبه وحمله على الاستزادة من القراءة والاطلاع . ثم بعد ذلك أخذ التأليف يداعبه فصار يكتب المقالة أو القصة ويقرض البيت أو البيتين . بل هو ربما يعتمد الى التوسع الفنى فيسأل عن الموسيقى والمسرح وينتقد ويتحرى الاصول ويحاول التحقق . وهو هنا لا يبغي كسباً من هذا المجهود اذ هو لا يريد احتراف الفن لأنه قانع بأن يكون هاوياً لا أكثر .

وثق أيها القارئ أن هذا الهاوى الذى لا يكسب قرشاً من هوايته ، بل لعله ينفق الكثير عليها باقتناء الكتب ، هذا الهاوى لا يضيع وقته . لانه بهوايته هذه يرتفع الى أسنى ما وصل اليه التأنق الذهنى . ذلك ان الشاعر يتخير من الكلمات والمعانى ما يسمو على المبتذل المألوف . والأديب يحاول أن يحيل هذه الحياة التكرارية الآلية الى قصيدة فنية . وكذلك الشأن عند جميع الفنانين . والهاوى الذى يغمره هذا الجو ويعيش في

هذا المناخ ينتهى الى ان يتنفس هواه ويأخذ بمقاييسه . وعندئذ
 ينتقل التأنق فى التعبير الى التأنق فى الحياة . ويعيش عندئذ
 حياة مترفة تبدو لغيره مثل سائر الحيات ولكنهم فى الصميم
 فن وترف فى التفكير . ذلك أن الأديب يعيش من يده الى
 فمه كما هو الشأن فى سائر الناس من حيث النشاط الذهنى . لأنه
 بهذا النشاط قد استطاع ان يخلق لنفسه عالماً آخر يحترق فيه
 أفكاره ويتخيل ويتأمل ويذكر الماضى ويبصر بالمستقبل
 ويدرس فى تعب أولذة . ثم يقىس حاضر المجتمع وواقعه بما
 ينبغى أن يكون . وهو قد وجد فى الادباء والشعراء القدامى
 والعصريين من حدوثه أحداث الكمال والسمو والعدل والشرف
 والانسانية والرقى . فهو بهذا كله يجد فى نفسه كظوما تحمله
 على التفريح بالكتابة . وقد ينجح ويعود أو يبدأ يصف الدواء
 لمساوى عصره . وقد لا ينجح فى الوصول الى الجماهير ولكنه
 مع ذلك قد دخل مدينة الفن والأدب والشعر واستمتع بما
 فيها من كنوز . وهو ان يخرج منها طوال حياته ولن
 يهجرها الى غيرها .

أنى أقصد أن يبدأ كل شاب حياته الوجدانية بالتعرف الى
 الاداب والفنون . يبدأ متفرجاً متنزهماً . ثم يتدرج محاولاً

ثم ينتهى كانبأ . وأقصد أيضاً أن يبدأ الشاب وهو يجد الفن أو الشعر أو الأدب فى الكتاب ولكن يجب أن ينتهى بان يحاول ايجاد الفن والشعر والأدب فى حياته . أجل ، هذه الحياة يجب الا نتركها تجرى فى نثر مبتذل بل نجعل منها قصيدة أو على الأقل نجعل بعض الأبيات العالية تتخلل هذا النثر . فنعيش ولو لحظات فى حياتنا نحس فيها المجد والقداسة والبطولة ونرى الجمال يشع من قلوبنا .

وهنا يضحك بعضنا ساخراً ويقول : هذا خيال . إنما الحياة مجهود نجمع فيه ونكسر اليوم العصيب والأزمة الطارئة وإيست الحياة قضاء الوقت فى تأليف الشعر .

وجرابى انى لا أنكر قيمة المجهود نبذله كى نكفل الطعام واللباس والسكنى . ولكن هل معنى هذا ان نقضى العمر كله فى الاهتمام بالطعام واللباس والسكنى ؟

ان الانسان لا يمكن أن يكون إنسانياً إذا اقتصر اهتماماته وهمومه على الطعام واللباس والسكنى . وإنما هو يرتفع إلى الانسانية عند ما تجد الثقافة الفنية ، ثقافة الترف الفكرى ، مسكناً فى ذهنه تأوى إليه بل تمرح فيه وتمتزج بخلاياه وتعود جزءاً لا ينفصل من حياته يوجهه ويكيفه ويعين له التصرف والسلوك ، أى يجعله ويضطره إلى أن يعيش المعيشة الفنية .

أعرف شاباً لا يبالى أن يتغدى بأى طعام يكسر حدة الجوع .
ولا يبالى أى لباس يتخذ ومسكنه غرفة فوق سطح أحد المنازل .
وهو بهذه المعيشة غير متمدن أى أنه لا يستمتع بمتع الحضارة
فى السكى واللباس والطعام . وهى متع لا تنكر قيمتها . ولكن
هذه القيمة صغيرة جداً إلى جنب المنع الثقافية الفنية التى يلعب
بها الذهن وتسمو بها النفس . والمقارنة بين الذهن المثقف وبين
حضارة السكى والطعام واللباس هى أشبه المقارنات بنظافة
الجسم إلى نظافة اللباس . وقد كان هذا شأن هذا الشاب . فانه
على الرغم من تقديره فى هذه الأشياء أو بالاحرى اهمالها كان
لا يترك كتاباً يستحق القراءة إلا كان يقتنيه . كما كان لا يتأخر
عن شراء التذكرة الغالية لحضور حفلة موسيقية . وكنت أجد
زرى الهيئة نحىلاً ولكن ذهنه حافل بالاثاث العصرى للثقافة
ونفسه فنانة لها قدرة كبيرة على التمييز الفنى . ولذلك كان
فقيراً بوسطه غنياً بنفسه .

وقد يكون هذا المثال متطرفاً أو مسرفاً . ولكن الحياة
الراقية تحتاج إلى أن نمارس فناً جميلاً ينعكس أثره فى نفوسنا
وعقولنا . فيجب الا نقرأ الشعر والأدب فقط بل نحاول ممارستها .
أجل . يجب أن نكون كلنا أدباء وشعراء نكتب الأدب ونقرض

الشعر . بل أكثر من هذا . ننقل الأدب والشعر الى حياتنا .
ليؤلف كل منا حياته . فنحترف المجد ونمارس القداسة وننزع
الى البطولة في الدفاع عن حق أو الانتصار لمظلوم ونفكر في
اسمى المعاني ونعبر بأنصع الكلمات .

وأولئك الذين يزدنون السعادة ولا يعرفون ما هي قد
يجدونها في ممارسة الآداب والفنون من حيث لا يدرون .
وخاصة اذا انتقلت هذه الممارسة من اللهو والتسلية الى الكفاح
والدعوة لعالم اسمى ، أى عالم يعيش فيه الناس على مرتبة سامية
من الحضارة الفنية .

السعادة

السعادة هي سلام النفس . وأول ما يجب أن نعرفه عنها أنها ليست مادية . ويجب أن نميز هنا بين السعادة والسرور لأنهما كثيرا ما يشتبهان . ذلك أن السرور ، أو اللذة ، مادية . أما السعادة ففكرية . فنحن نسعد بالفكر أو بالإيمان أو الرؤيا أو الأمل بحيث يحفزنا واحد من هذه الأشياء الأربعة إلى كفاح . ولكننا نسر ونلتذ بالطعام أو اللباس أو المال أو الشهوات الجسمية .

والمسرات واللذات ، لأنها مادية ، تتوقف على جوع يشبع أو طمع يحقق ، ثم تؤجم في النهاية أو تؤدي إلى السأم . ولكن السعادة ، لأنها فكرية تنهض على إيمان أو كفاح أو اتجاه ، لا تؤجم ولا تؤدي إلى سأم . فالقديس مثلا سعيد بإيمانه وهو يستشهد في فرح وطرب . وسعاده هنا فكرية . ولكن لذة الطعام تنتهي عند الشبع ، وقد تحدث صدودا .

وهناك اعتبارات أخرى تجعل السعادة دائمة باقية والسرور وقتيا زائلا . ذلك أننا حين نسعد بالفكرة لا يعيق سعادتنا حد أو غيره أو مقارنة مهيئة لنا بغيرنا أو إحساس النقص بأن

هناك من يحوزون أكثر مما حزننا . فقد أسرّ لأنى اشترت عزة
أو اقتنيت أتومبيلاً أو غير ذلك من المقنيات المادية . ولكنى
فى هذا السرور أحس أيضاً أنى كنت أكون أكثر سروراً لو لم...
فإن العزة كانت تكون أسرّ لى لو كانت أكبر وأخصب . وكان
الأتومبيل يمتعنى أكثر لو كان من طراز آخر . وهلم جراً .
ولكن السعيد بفكرة ما لا يحسد ولا يغار ولا يحب أن
يستأثر بفكرته . بل هو يحب العكس . وهو أن جميع الناس يسعدون
بمثل سعادته ، كما يحدث لأحدنا حين يطرب لاستماعه إلى لحن
جميل ، أو لأنه يتأمل مبنى عظيم ، فإنه يحث رفيقه على أن يستمع
أو ينظر ويتأمل .

والسعادة ، كالشعر عند اسحق الموصلى ، أيسر مما نظن . فهمى
لا تحتاج إلى التكلف أو المشقة . بل إن السرور أدعى إلى التكلف
أو المشقة من السعادة . وذلك لأن السعادة ذاتية ، فى ذوات
انفسنا ، إذ هى حال معينة أو اتجاه معين . أما السرور فهادى
نحتاج فيه إلى الاقتناء .

وقد يكون أيضاً من الحق أن نميز بين السرور والسعادة
بأن نقول إن السرور اشتهاى غريزى يتعلق بما نأكل أو نلبس
أو نسكن أو نفتنى . ولكن السعادة وجدانية مرجعها الفكر

أى العقل . والسعادة لهذا السبب تحتاج إلى التربية الفنية . بل إلى المعارف العلمية التى تكشف عن خبايا وكنوز لا تصل إلى إلى كنهها الغرائز . فأنا حين أمارس الزهو الاجتماعى باقتناء الأثاث الفاخر أو بالقيام بالضيافة المطهمة أو نحو ذلك أمارس نشاطا غريزيا شهوانيا له ذبول وهوامش من الغيرة والحسد والطمع . أى أنه سرور معلق ولا احتاج أن اتعلم كيف أمارسه ، ولكنى حين أقعد إلى جدول الماء وأأمل الطبيعة وهى تترغى وتزبد فى الحقول أيام الربيع وأتابع فراشة فى نشاطها الغذائى أو الجنسى ، أحس سعادة مطلقة . سعادة مخية وجدانية وليست غريزية شهوانية . وهذه السعادة تحتاج إلى تعلم .

وإذا كان القسارى قد تابعنا فى منطقنا فإنه يستطيع أن يعرف لماذا نكون سعداء عندما نتأمل مقطوعة فنية من الشعر أو الرسم أو البناء أو نستمتع إلى مقطوعة فنية من الغناء أو الموسيقى . فنحن هنا ازاء سعادة مطلقة هى فوق الشهوات الغريزية . ونحن لا نأجم هذه السعادة ولا نملها كما أنها لا تبعث فىنا غيرة أو حسداً أو طمعا . ومن هنا سعادة الفنان وسعادة الفيلسوف ، كلاهما سعيد بفكرته . بل أن العالم الذى يبحث موضوعاً عليها سعيد أيضاً بعلمه لأنه يحاول كشف سر من أسرار الطبيعة المغلقة . فهو هنا

كالقديس يرى رؤيا ويعتقد أنها ستتحقق .

وليس شك أن السعادة هي سلام النفس . وهل شك أحد

في أن سلام النفس هو فكرى وليس ماديا ؟

والعجب أن المتع الحقيقية في هذا العالم ، تلك المتع التي

نسعد بها أسهل حصولا وأرخص قيمة من المتع الزائفة التي

قصارى ما تؤدي أننا نسر بها سرورا وقتيا زائلا . وهى يجب

أن تكون كذلك لأن السعادة فكرية ، والفكر لا يكلفنا مالا

ولكن السرور مادي يكلفنا مالا وجهداً . وأحيانا تفوتنا فرصة

السعادة ، فرصة الحياة الفنية ، لأننا استغرقنا حياتنا في السرور

واللذة .

ونستطيع أن نعود هنا إلى المقارنة بين القيمة البشرية

والقيمة الاجتماعية . ذلك أن قيمة السعادة بشرية : في الفكر

والاتجاه والتائق الفنى والتأمل الفلسفى والرؤيا للمستقبل

والمثليات والكفاح لهذه الأشياء جميعها . وجميع هذه الصفات

ذاتية فى ذات أنفسنا ، وهى بشرية ليس لها قيمة اجتماعية .

ولكن قيمة السرور اجتماعية فى الأغلب لأنها تنشأ من

اعتبارات المجتمع . لأننى أسرّ مثلاً باقتناء أتومبيل إذ أن مثل

هذا الاقتناء قد عده المجتمع تبريزاً وتفوقاً . أو أسرّ بالثراء

لأن المجتمع يعد الثراء تفوقا ونجاحا .

وهل نستطيع أن نتعلم كيف نكون سعداء ؟

أجل . نستطيع ذلك بأن نجعل وجداننا فوق غرائزنا أي
نجعل التعقل فوق الشهوات . وكذلك بأن نتعلم ونهتم بما هو
أسمى من همومنا الشخصية . نهتم بالناس والسياسة والهند
والامبير يالية والنجوم والكواكب والحيوان والنبات
ومستقبل الصحة والحيوان والنبات ومستقبل البشر وماضي
الأحياء ، والتطور الماضى والقادم ، والمرضى والصحة والدين
والأدب والفلسفة . وهذه الاهتمامات المتعددة تبسط لنا آفاقا
رحبة للتفكير فلا تحددنا حدود الشهوة ولا تستعبدنا الغرائز
في اهتمامات مادية غايتها لذة الطعام ومتعة اللباس والمسكن
واقتناء مواد لا تحصى بل لا تفتأ تبعث فينا الرغبة في الزيادة .
هذه الرغبة التي تجهدنا بل أحيانا نسير فيها سادرين ذاهلين وقد
نموت قبل أو اننا ونحن لاندرى أننا كنا مسوقين باعتبارات
اجتماعية هي أبعد ما تكون من السعادة .

قلنا في أول هذا الفصل ، أننا نسعد بالفكرة أو الإيمان أو
الرؤيا أو الأمل إذا كان أحد هذه الأربعة يحفزنا إلى الكفاح .
وهنا نحتاج إلى تفصيل موجز : ذلك أن الطاقة النفسية لا تطيق

الحيس . والكتم والكفاح ولذلك فإن لشأن ما ، أى شأن نعتقد أنه حسن ، يفتح لنا قناة تنصرف إليها الطاقة . أما إذا حبست هذه الطاقة فانها تحدث لنا فى الحالات الخفيفة نيوروزا اى ضيقاً عاطفياً . وفى الحالات الخطيرة تحدث سيكوزا أى جنوناً . ولذلك كثيراً ما نجد الشاب مضطرباً متشائماً تسوده هموم مهمة لا يعرف مأتاها فاذا انضوى إلى حزب سياسى مثلاً انطلق فى تفاؤل يعمل ويسرّ بعمله . وهو سعيد بهذا الكفاح الذى يبعث فيه نشاطاً ويحمله على الدرس والخدمة والتعاون ويخرجه من أنانيته . وهو هنا يشعر بالسعادة .

وعلى هذا نقول إن السعادة تحتاج إلى كفاح . وسلام النفس لا يعنى ركوداً وجموداً بل هو أحرى بأن يبعث نشاطاً وهمة وانجازاً لآمل او تحقيقاً لرؤيا ، بحيث يكون هذا الآمل او هذه الرؤيا عند احداً أسمى وأعم من همومه الشخصية الذاتية لأنها بسموها وعموميتها تكسبه كرامة وتجعل لحياته معنى بل معنى . وهنا السعادة .

تعقيب على السعادة

كلنا تقريباً نلشد السعادة وقد تحدث عنها كما لو كانت من البديهيات التي لا تستحق مناقشة لأننا نعد السعادة خير ما يطلب في هذا الوجود .

ولكننا نختلف كثيراً في معنى السعادة . وأن كان المألوف أننا نعني بهذه الكلمة الأمن من الكوارث وراحة البال ، أى سلام النفس والصحة .

ولكن إذا كان هذا هو كل ما نعني بالسعادة فإن كثيرين ، بل كثيرين جداً ، يحققونها . ومع ذلك لا يجدون منا غير الاحتقار ، لأننا لا نحسدكم على حالكم هذه . إذ هي تشبه الركود والذهول بحيث تستحيل حياتهم نباتية خالية من التفرز والتنبه ، ثم ما يعقب هذا من تبلد ذهني يشبه الجمود .

والرجل الذي تنزل به الكوارث المتعددة هو — في القيم الإنسانية كالذكا . والاختبار والتعلم — خير من السعيد الذاهل الذي لم تنبهه قط نكبة فادحة تجعله يقف ويتساءل : أين موقفي من هذا العالم ؟ ،

والسعداء الذاهلون كثيرون جداً ، وهم يستغرقون في

المسرات، وينشدون الثراء، ويبلغونه ويحققونه... وقد يعيشون في القصر الفخيم، ويأكلون أطيب الطعام، ويتنقلون في الفصول من المصيف إلى المشتى، ويجدون حاشية من الخدم، كما أن شهواتهم تجد الاشباع الدائم، وراحتهم رفاهية، ورفاهيتهم ترف وبذخ.

ولكن قليلا من الحديث مع أحدهم يوضح أن سعادتهم إنما هي ذهول وخمود وتبلد، وأنهم لو كانت الآقدار قد رفقت بهم لكانت قد كرتهم بنكبة فادحة، توقظهم من سباتهم.

وهؤلاء السعداء الذاهلون يجدون في الكائنات الدنيا ما هو أسعد منهم. فان الديدان والحشرات مثلا أسعد، لأنها أكثر ذهولا منهم، وهي أيضا أبعد عن السكوارث.. اذ أقل ما يقال فيها إنها لا تعرف السكوارث حتى وقت وقوعها بها.

وعندى أن مثل هذه السعادة يجب ألا نشدها.. لأن السعادة العليا التي هي صفة الانسان العالى هي الوجدان. وكلما زاد الوجدان زادت السعادة، ولكن... زادت السكوارث، والهموم والاهتمامات أيضا.. ونرى بكلمة الوجدان هنا ما يسميه غيرنا «الوعى»

والناس في أغلب أحوالهم يعيشون بالتصوير الحسى لأنه

هو التصوير البدائي بل الحيوانى الذى لا يحتاج إلى مجهود .
ولكن الرجل الراقى يدرب نفسه على التصوير الوجدانى .
فنحن مثلاً نتأثر عند ما نرى طفلاً قد وقع من الترام فقطعت
ساقه . . . ولكننا حين نقرأ أن ثلاثة ملايين هندي ماتوا بالقحط ،
لأنكاد نقف عند سطور هذا الخبر كى نتصور هول هذه الكارثة . . !
فالحادث الأول سريع إلى حواسنا لأننا قريبون منه ، وتأثرنا
لذلك سريع ، ولكن الحادث الثانى يحتاج إلى مجهود عقلى حتى
نتأثر به .

وعلى هذا القياس نقول إن السعادة نوعان : الأول هو
سعادة الحواس ، أى المسرات الحسية المادية ، أما الثانى فهو
سعادة الوجدان ، أى سعادة التعقل والتصور ، السعادة الفكرية .
وهذه السعادة الفكرية لا تبالى السكوارث ، بل أن السكوارث
تخصبها ، وتزيد لها نضجاً وإيناعاً ، بحيث أننا عندما تمر بنا السنين
ننظر إلى التقلبات والنكبات التى نزلت بنا كما لو كنا قد عشنا
حيوات عديدة بدلاً من حياة واحدة . . . وكثيراً ما أعود
بالذكرى إلى بعض الصدمات والسكوارث والأحزان التى مرت
بى فأجد كلاً منها كان بمثابة الدرجة التى ارتقيت عليها صاعداً فى
سلم الحياة لأنها زادت وجدانى فزادت تعمق فى الحياة وتوسعى

فى الاختبارات وأكسبتنى هموماً قد استجالت إلى اهتمامات
لا أرضى بالنزول عنها الآن .

ولذلك أستطيع أن أقول إن الحياة السعيدة هى الحياة
الحيوية التى تزيد فيها درجة الحياة حدة ويقظة وتنبها أى وجدانا .
والهموم والازمات والكوارث تجعل حياتنا لذلك حيوية ..
وهى تزيدنا سعادة . أما الأمن من الكوارث والمعيشة الحسية
والمسرات فتجعلنا نعيش فيما يقارب الذهول ، فلا نتنبه ولا نحتد
أى لا نتعقل فى حدة ودقة وإمعان . ولو كانت هذه السعادة هى
ما يجب أن نطلب لكان أدنا الحيوانات أسعد منا . بل عندئذ
كننا نكون أسعد بالنوم منا باليقظة ، وبالموت منا بالنوم .

ولذة الدنيا هى فى النهاية : اختباراتها ، ومشاكلها ومآزقها
وأزماتها . ثم تحدى كل هذه الأشياء بالوجدان والتعقل . وذلك
الذى يبغى السعادة فى معناها الانسانى العالى ، يجب أن يزيد
حياته حيوية لا أن ينقص . هذه الحياة بالاختصار على المعيشة
الجسدية ، على المسرات ، هذه هى السعادة التى تستحق أن
ننشدها . السعادة هى الفهم بالوجدان والتعقل .